

فقه وتزكية المرشد المعين بين الإيجاز وقوة الإيحاء

كـه الأساذ الدكتور عبد القادر داوي

أستاذ التعليم العالي، جامعة وهران 1



الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على المبعوث
رحمة للعالمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين ورضي الله عن الصحابة أجمعين
ومن سار على دربهم واقتفى أثرهم واستن بسنتهم وبعد:

فإن من مصنفات الفقه المالكي التي ذاع صيتها بين أوساط طلبة العلم ورواد
الكتاتيب وتلاميذ المحاضر منظومة الإمام عبد الواحد بن عاشر المسماة بـ
(المرشد المعين على الضروري من علوم الدين) والتي جمعت مسائل في فنون
شتى بين الكلام والعقيدة ومبادئ الأصول ثم أبوابا من فقه العبادات ثم التصوف.
وستتناول في هذه الورقة جوانب من إبداع الإمام ابن عاشر في باب الفقه
والتزكية مما حواه هذا التصنيف بعد التعريف بالإمام وبحياته العلمية الحافلة⁽¹⁾.

(1) ينظر شجرة النور الزكية لمحمد مخلوف 434/1، صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن
الحادي عشر للإفراني ص 124، نشر المثنائي بأخبار أهل القرن الحادي عشر والثاني لمحمد بن
الطيب القادري 283/1، سلوة الأنفاس ومحاذة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصالحين بفاس
لمحمد بن جعفر الكتاني ترجمة رقم (732)، 310/2، التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من
أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر لمحمد الطيب القادري ص 91، الدرر البهية للفضيلي
344/2، الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس للمحمد بن عيشون الشراط،
تحقيق زهراء النظام ص 340، الفكر السامي في تاريخ التشريع الإسلامي لمحمد الحجوي
الثعالبي 327/4.

المبحث الأول: تعريف موجز بالمؤلف

المطلب الأول: التعريف بالإمام عبد الواحد بن عاشر

هو الإمام الفقيه العالم الزاهد أبو محمد عبد الواحد بن أحمد بن علي بن عاشر بن سعد الأنصاري نسبا الأندلسي أصلا الفاسي مولدا ونشأة ووفاة. ولد الإمام عبد الواحد بن عاشر عام تسعين وتسعمائة (990هـ) بفاس العامرة ونشأ بها وتربى في بيت فضل وصلاح، ومات بفاس ودفن بها عام (1040هـ).

المطلب الثاني: شيوخه ومصادره:

إن مكانة الشيوخ الذين أخذ عليهم الطالب تعزز مكانته العلمية التي يتبوأها بعدهم وتؤكد منزلته بين العلماء وفضل العلم الذي تركه باعتباره ثمرة طيبة لتلك الجهود النبيلة التي بذلها الشيوخ وقطفها التلميذ.

وقد تعددت مشارب ومناهل شيوخ الإمام ابن عاشر بين مختلف علوم الشريعة وما يخدمها من علوم أخرى جعلت منه عالما متمرسا متقنا جامعا بين العلم وثماره من صلاح وتركيز متدثرا بأخلاق العلماء ورثة الأنبياء في العمل والصلاح والمجاهدة وسمو الروح والخلق.

شيوخه في القرآن الكريم وعلومه:

1 - قرأ القرآن على الإمام الشهير المحقق أبي العباس أحمد بن الفقيه الأستاذ عثمان اللمطي حفظا وتجويدا.

2 - أبو العباس أحمد الكفيف: أخذ عنه قراءات الأئمة السبعة

3 - أبو عبد الله محمد الشريف المري التلمساني (ت1018هـ)، أخذ عنه قراءات الأئمة السبعة.

قال ميارة رحمته الله: ولا شك أنه (ابن عاشر) فاق أشياخه في التفنن في التوجيهات والتعليلات.

شيوخه في الحديث وعلومه:

أخذ الإمام ابن عاشر علوم الحديث عن جماعة من العلماء بالمغرب والمشرق في رحلته ومنهم:

- 1 - أبو عبد الله محمد بن قاسم القصار القيسي الإمام الورع المتبحر في جميع العلوم منقولها ومعقولها (ت1012هـ).
- 2 - ابن عزيز «وهو الشيخ الورع أبو عبد الله محمد بن أحمد التجيبي»⁽¹⁾. (ت1022هـ).

3 - ابن القاضي «الفقيه المحدث الراوية أبو العباس أحمد بن أبي العافية الشهير بابن القاضي» الإمام في جميع الفنون، أخذ عن أهل المغرب والمشرق اشتغل بالإقراء والتدريس ومنه البخاري (ت1025هـ)⁽²⁾.

4 - صفى الدين العزي الشافعي: أبو عبد الله محمد بن يحيى العزي الشافعي الذي أخذ عنه في رحلته للحج عام (ت1008هـ).

5 - أبو عبد الله محمد بن الجنان: قرأ عليه الموطأ.

6 - أبو الحسن علي البطيوي: الشيخ الإمام المحدث الزاهد، قرأ عليه شمائل الترمذي (ت1039هـ).

شيوخه في النحو والفقه وغيره من العلوم:

لقد أخذ الإمام عبد الواحد علوم الشريعة وعلوم الآلة عن جلة علماء عصره وهو ما انعكس على مساره العلمي والتعليمي وبروزه وتفردته وإتقانه للعلوم التي أخذها ومن ذلك بالإضافة إلى العلماء والشيوخ الذين سبق ذكرهم:

- 1 - أبو الحسن علي بن عمران: القاضي الفقيه، كان يستظهر متن خليل، تولى الفتوى والخطابة بفاس والقضاء بمراكش، مات قتيلاً مسموماً عام (ت1018هـ).

(1) انظر ترجمه في شجرة النور الزكية لمخلوف (1169) 430/1.

(2) انظر ترجمه في شجرة النور الزكية لمخلوف (1172) 431/1.

2 - أبو عبد الله الهواري: الفقيه المفتي، تولى خطابة مسجد القرويين بفاس.

3 - السنهوري: أبو النجا سالم بن محمد السنهوري المصري (ت1016هـ).

4 - الإمام بركات الحطاب: أخذ عنه بمكة.

5 - الدنوشري: أبو عبد الله المصري، اللغوي النحوي، أخذ عنه في رحلة

الحج. (ت1025هـ).

هؤلاء النجوم من أهل الرسوخ والتميز والتمكن في العلوم هم الذين أسند إمامنا ركبتيه إلى ركبهم وتعطرت أنفاسه بمجالسهم متعلما متفقا متأدبا مقتبسا ناهلا من سماتهم وأدبهم وحكمهم قبل علومهم وتحريراتهم. فجمع لذلك فقه النفس والأحوال وفقه الجوارح والأعمال، فأصلح بعلمهم وجالستهم عقله وعلمه وعمله وحاله.

المطلب الثالث: تلامذته

- حمدون بن محمد بن موسى: الإمام الجليل حافظ المذهب الفقيه المشاور

في الأحكام أخذ عن ابن عاشر والجنان والمقري وغيرهم. تولى خطابة جامع الأندلس ووقعت بينه وبين الشيخ ميارة محاورة في مسألة علمية. وله فتاوى حسنة وحاشية على المختصر مشهورة. (ت1071هـ)⁽¹⁾.

- أبو عبد الله محمد بن أحمد ميارة: الفقيه الفصيح العبارة الإمام العلامة

المتبحر في العلوم الفهامة الثقة الأمين المعروف بالورع والدين المتين، أخذ عن ابن عاشر وشاركه في غالب شيوخه منهم أبو الفضل بن أبي العافية وابن عمه أحمد بن أبي العافية وابن أبي نعيم⁽²⁾.

(1) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ترجمة رقم (1217)، (447/1).

(2) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ترجمة رقم (1218)، (447/1).

- أبو العباس أحمد بن حمدون المزوار الفاسي: أحد العلماء الأخيار والأئمة الكبار أخذ عن ابن عاشر وغيره له نظم عذب. مولده سنة 1012هـ وتوفي سنة 1084هـ/1673م⁽¹⁾.

- القاضي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي المحاسن يوسف الفاسي: الإمام الجليل العلامة الأصيل الفقيه النبيل الشيخ الحافظ الأستاذ اللافظ أخذ عن ابن عاشر وابن أبي نعيم وعمه العربي وعم أبيه عبد الرحمن، له شرح على المختصر وشرح على المراصد لعمه العربي وغير ذلك. مولده سنة 1009هـ وتوفي سنة 1084هـ⁽²⁾.

المبحث الثاني: مكانته العلمية في نظر العلماء

المطلب الأول: مكانته العلمية:

تجلت بعض ملامح المكانة العلمية للشيخ من خلال ما عرفناه من شيوخه، كما تبرز من خلال مصنفات الشيخ وقيمتها العلمية ومدى اعتماد الفقهاء عليها والعزو إليها والاقتراس منها.

ومما يبرز المكانة العلمية للشيخ ثناء العلماء عليه والإشادة بالعلوم التي برز فيها وأجادها أو تفنن فيها ومن ذلك ما نقله تلميذه الوفي ميارة رحمته الله حيث قال عنه: «كان الناظم رحمته الله ذا معرفة بالقراءة وتوجيهها وبالنحو والتفسير والإعراب والرسم والضبط وعلم الكلام يحفظ نظم ابن زكري عن ظهر قلب، ويعلم الأصول والفقه والتوقيت والتعديل والحساب والفرائض وعلم المنطق والبيان والعروض والطب وغير ذلك»⁽³⁾.

(1) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ترجمة (1232)، (452/1)

(2) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ترجمة (1233)، (452/1)

(3) الدر الثمين والمورد المعين (شرح المرشد المعين على الضروري من علوم الدين) لمحمد بن أحمد ميارة 8/1.

المطلب الثاني: ثناء العلماء عليه:

قال تلميذه ميارة: كان ابن عاشر  عالماً عاملاً ورعاً عابداً مفتياً في علوم شتى⁽¹⁾.

وقال عنه الإفرائي: ابن عاشر الفاسي ممن له التبحر في العلوم، ومن أهل المشاركة في الفنون⁽²⁾.

وقال مخلوف: أبو مالك عبد الواحد بن أحمد بن عاشر الأنصاري الأندلسي: الأصل الفاسي المولد والقرار الفقيه الأصولي المتكلم الإمام النظار خاتمة العلماء العاملين الأخيار...⁽³⁾.

جمع ابن عاشر بين العلم والعمل والإخلاص والتربية ومعالجة النفس وتصفيتها، في تواضع وإنصاف تام للمخالف مع عفة النفس عما في أيدي الغير. قال عنه الإفرائي: كان ذا سمت حسن، مثابراً على تعليم الناس زاهداً في الدنيا يأكل من كد يده، يضرب في الأرض على طلب الحلال متواضعا كثير الإنصاف في المباحثة، يتولى جميع أموره بيده، يتولى شراء حوائجه من السوق بنفسه⁽⁴⁾.

المطلب الثالث: مصنفاته:

ترك الإمام ابن عاشر جملة من المصنفات العلمية النافعة أتم بعضها ولم يكتب لأخرى الاكتمال ومن ذلك⁽⁵⁾:

- شرح على مورد الظمان في رسم القرآن.

- الإعلان بتكميل مورد الظمان، وهو في كيفية رسم قراءة غير نافع من بقية

السبعة في نحو خمسين بيتاً وشرحه.

(1) الدر الثمين والمورد المعين (ص: 7).

(2) صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر للإفرائي ص 124.

(3) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (434/1)

(4) صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر للإفرائي ص 124.

(5) ذكرها تلميذه ميارة في الدر الثمين ص 8.

- شرح مختصر خليل ولم يكتمل.
- حاشية على الشرح الصغير للتتائي على المختصر.
- تقايد على العقيدة الكبرى للسنوسي.
- حاشية على الجعبري.
- مقطعات في جمع نظائر ومسائل مهمة من الفقه والنحو وغيرهما.
- المرشد المعين على الضروري من علوم الدين وهي موضع هذه الدراسة.

المبحث الثالث: المرشد المعين بين فقه النفس وفقه الجوارح

هذه المنظومة العديدة المثال في الاختصار وكثرة الفوائد والتحقيق ومحاذاة مختصر الشيخ خليل والجمع بين أصول الدين وفروعه بحيث أن من قرأها وفهم مسائلها خرج قطعاً من رتبة التقليد والمختلف في صحة إيمان صاحبه وأدى ما أوجب الله عليه تعلمه من العلم الواجب على الأعيان⁽¹⁾.

المطلب الأول: المرشد المعين سلاسة أسلوب وثراء مضمون

وهي منظومة علمية مختصرة جامعة من (314 بيتاً)⁽²⁾ جمع فيها بين أصول الدين وفروعه، وضمت مبادئ العقيدة وأصول الفقه ثم فقه العبادات ابتداء من الطهارة إلى الحج والعمرة والزيارة، ثم ختمها بمبادئ التصوف وهوادي التعرف.

(1) الدر الثمين والمورد المعين ص 7.

(2) اختار الناظم هذا العدد تيمناً بعدد الرسل كما صرح به: أبياته أربعة عشر تصل... بعد ثلاثمائة عدد الرسل

عن أبي ذر قال: قلت: «يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وعشرون ألفاً. قلت: يا رسول الله كم الرسل من ذلك؟ قال: ثلاث مائة وثلاثة عشر جما غفيرا. قال: قلت يا رسول الله من كان أولهم؟ قال: آدم.

أخرجه ابن حبان في صحيحه، ذكر الاستحباب للمرء أن يكون له من كل خير حظ رجاء التخلص في العقبي بشيء منها (361). 76/2.

فمن وفق لقراءة هذه المنظومة وتحصيلها وفهمها فقد جمع مبادئ الدين وفروعه الضرورية وخرج من ربة التقليد التي اختلف في صحة إيمان صاحبه. ولأنها منظومة جامعة لفروع الدين وأصوله الضرورية عدت هذه المنظومة أهم ما يبتدئ به الطالب لشق طريق التميز والتعمق في علوم الشريعة، وتكون القاعدة الصلبة الصحيحة والمتينة التي يبنى عليها علمه ويصح طلبه ويستمر نبوغه.

وقد كتب لهذه المنظومة القبول بين طلبة العلم صغارا وكبارا حتى صارت تكتب على ألواح القرآن الكريم يستحضرها الطالب أثناء حفظه ومراجعته لكتاب الله تعالى نظرا لسلاسة أسلوبها وغازرة علمها وشمولها لمراتب الدين الثلاث: الإيمان والإسلام والإحسان فكانت كافية صافية بإذن الله تعالى.

المطلب الثاني: مواضيع منظومة ابن عاشر:

امتازت هذه المنظومة بأنها كانت جامعة لمراتب الدين والضروري من العلوم الشرعية وقسمت أبياتها على أبواب متناسقة وأعطى كل باب حقه الذي يفي بمقصود المصنف ويحقق غرضه التعليمي والتربوي فكانت كالاتي:

مقدمة لكتاب الاعتقاد معينة لقارئها على المراد: في 8 أبيات.

كتاب أم القواعد، وما انطوت عليه من العقائد: في 34 بيتا

مقدمة من الأصول معينة في فروعها على الوصول: 06 أبيات

كتاب الطهارة: 45 بيتا.

كتاب الصلاة: 83 بيتا.

كتاب الزكاة: 29 بيتا.

كتاب الصيام: 18 بيتا.

كتاب الحج: 62 بيتا.

كتاب مبادئ التصوف، وهوادي التعرف: 27 بيتا.

المطلب الثالث: فقه ابن عاشر إيجاز وإعجاز

استوعب الناظم كل أبواب فقه العبادات بشكل واف يحصل معه الطالب أهم مسائله ويقف فيها على زبدة أحكامه بشكل مشوق وبسيط يسلك الجزم في التقرير ويستبعد التعقيد والخلاف في التحرير، فيفهمه المبتدئ ويروي ظمأ المتعطش، وهو ما تؤكد تفاصيل الآتية:

كتاب الطهارة 45 بيتاً: جمع أحكام الطهارة الصغرى والكبرى وبدلها، وما يتعلق بأحكام المياه مما لا يسع المكلف جهله في آيات محكمة وفصول مركزة موجزة تغني مستوعبها عن قراءة المطولات والغوص في الأمهات.

كتاب الصلاة: 83 بيتاً. أورد فيه معرفة ما تصح به وما يتوقف عليه صحتها وتمامها ببيان أركانها وشروطها ومندوبها ومكروها وأنواعها وسائر أحكامها. وهو أطول الكتب لفضلها ومنزلتها.

كتاب الزكاة: 29 بيتاً، وقد أشار فيها إلى حكمها وأصناف الأموال التي تجب فيها ومقاديرها وأنصبتها وشروط وجوبها وصحتها ومصارفها، ثم ختم بزكاة الفطر وأحكامها.

كتاب الصيام: 18 بيتاً، وقد جمع فيه أحكام صيام رمضان، وأركان الصوم وشروطه وموانعه، وأنواع المفطرات ومفسدات الصوم ثم كفارة الإفطار.

كتاب الحج: 62 بيتاً. لقد رسم الإمام ابن عاشر الرحلة إلى البيت العتيق وصور مشاهد الحج وقربها للقاري والسامع بشكل مشوق تشوق قلوب المؤمنين لبيت الله الحرام وزيارة مسجد رسول الله وروضته وقبره ﷺ.

وأوفى فقه الحج حقه ببيان حكمه وأركانه وواجباته، وسننه ومستحباته، وبين مواقيت إحرامه وموانعه، وأنواع النسك، وفصل أفعال الحج وصفته وصفا يجعلك تعيش لحظاته بشوق ولهفة.... ثم ختم بأحكام العمرة وآداب الزيارة.

المطلب الرابع: تزكية النفس سمو في مدارج الإحسان

في اثنين وعشرين بيتا جال بنا الإمام وسبح بالروح متدرجا بين الخوف والرجاء يسبر أغوار النفس منقبا عن أمراضها وكاشفا لأغراضها راسما خطة زكاتها واستقامتها محذرا من غرورها وانفلاتها، هاتكا أسرار الأدوية وواصفا طريق الدواء، فجمع ﷺ في أبيات وجيزة بين المهلكات والمنجيات وبين المعوقات والمحفزات على السير في طريق النجاة.

أصول الهداية:

- 1 - حفظ الجوارح عن المحارم
 - 2 - الورع بترك الشبهات والوقوف على الأمور التي لم يعلم حكمها وعدم الإقدام إلا بعلم
 - 3 - تطهير القلب من أمراضه: كالرياء والحسد والعجب وحب الرياسة ونسيان الآخرة والغفلة....
 - 4 - التحلي بمقامات اليقين: «الخوف والرجاء والشكر والصبر والتوبة والزهد والتوكل والرضا والمحبة....».
- وصف دواء القلوب: وقد ذكر ﷺ من دواء القلوب من أمراضها ونكوصها وانتكاسها اللجوء إلى الله، صحبة الشيخ الهادي، محاسبة النفس، حفظ الفرائض، المداومة على النوافل وكثرة الذكر والاستعانة بالله والمجاهدة، فيجمع بين التخلية والتحلية.

أهمية صحبة الشيخ في صحة السلوك:

يصحب شيخا عارف المسالك يُذَكِّرُ ————— رُءِ الله إذا رآه
يُذَكِّرُ ————— رُءِ الله إذا رآه ويُوَصِّلُ العبدَ إلى مولاه

فقه النفس كفه الجوارح، وضبط أحكام الأحوال أشد من ضبط أحكام الأقوال والأفعال، فكما يحتاج الأول إلى المعلم المربي احتاج الثاني إلى الشيخ الناصح الموجه والمؤدب ليدله على الطريق ويعرفه عيوب النفس وأمراضها ويكشف له رجونات النفس ويذكره حاله بالله ويعرفه بإحسان الله إليه ويوقفه على إنكار النفس وإساءتها....

المطلب الخامس: بين الفقه والتزكية، تناغم لا تمايز:

من مواطن الإبداع في المرشد المعين المزوجة بين فقه النفس وفقه الجوارح، أو فقه الباطن وفقه الظاهر، والتدرج من مرتبة الإسلام إلى مرتبة الإحسان ليؤكد أن الفقه لا ينفصل عن صلاح القلب وحسن النية وصدق التوجه إلى الله تعالى حتى ينفع صاحبه ويتمي بحق لزمره العلماء، إذ لا قيمة لعلم بلا خشية ولا مراقبة وجاهدة ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿⁽¹⁾﴾.

وحلية العالم العمل وحسن الخلق ومداومة مراقبة الخالق ومحاسبة النفس ونبذ الغرور، ولذلك ختم الشيخ كتابه بعد بيان العقيدة والفقه بتزكية النفس ليرتقي بالعالم من مجرد التعلم وإدراك المسائل إلى مرتبة الخشية والتواضع، ويكون آخر عهد الطالب فقه النفس وزكاتها؛ لئلا يقع في الغرور والكبر والرياء، ويعلم أن ثمرة العلم هي العمل به وبذله ونشره بين الناس لنفع الخلق لأن العلم النافع مأواه القلب الطاهر ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ⁽²⁾.

فالفقه في حاجة إلى تزكية النفس وصلاح القلب ومعالجة أمراضه ومجاهدة الأهواء، كما أن التزكية القلبية لا بد من ضبطها بميزان الشرع، فالفقه لا بد أن

(1) سورة فاطر/28.

(2) سورة الجمعة/2.

يحلّى بمسحة تصوف والتصوف لا بد أن يطبع بطابع الفقه، وهذا الذي سماه الإمام ابن عاشر بالقسطاس:

يُحَاسِبُ النَّفْسَ عَلَى الْأَنْفَاسِ وَيَزِنُ الْخَاطِرَ بِالْقَسْطِ

وَيَحْفَظُ الْمَفْرُوضَ رَأْسَ الْمَالِ وَالنَّفْلَ رِبْحَهُ بِ— يُوَالِي

خاتمة: هذه نظرة سريعة في أحد أعلام الفقه والتربية ممن شرفهم الله تعالى بالعلم وكتب لهم الذكر الحسن والثناء الجميل بين الأجيال المتعاقبة بعده، اهتم بالصغار والأُميين فأعلى الله قدره وشأنه وجعل اسمه على ألسن المتعلمين داعين ومترحمين، سار على نهج العلماء والصالحين فقيض الله له من ينشر علمه ويسلك نهجه ويستغفر له ويترحم عليه. وصلى الله وسلم على محمد وآله.

